

القراءات القرآنية المنتشرة في بلاد المغرب والأندلس قبل قراءة نافع

Quranic readings spread in the countries of morocco and Andalusia
before reading nafehسفيان رضوان صالح¹

جامعة يحيى فارس المدية

redsofiane2014@gmail.com

محمد خليفاتي

جامعة يحيى فارس المدية

mkhelifati84@gmail.com

تاريخ الوصول 2020/03/23 القبول 2020/11/04 النشر على الخط 2021/03/15

Received 23/03/2020 Accepted 04/11/2020. Published online 15/03/2021

ملخص:

يتناول البحث المراحل التاريخية التي مرت بها القراءة القرآنية في بلاد المغرب والأندلس، حيث بمجرد دخول الفاتحين الأولين، القادمين من الشام، نرى انتشار قراءة ابن عامر، ثم بعد أن قلَّ وجودهم، بعد سقوط دولة بني أمية، على أيدي بني العباس، انتشرت قراءة أهل الكوفة، وهي قراءة حمزة، وقد بقي هذا الحال إلى النصف الثاني من القرن الثالث هجري، أين عرفت هذه البلاد قراءة نافع؛ ويرجع الأمر بالدرجة الأولى إلى العدد الهائل من طلبه العلم، الذين رجعوا من المدينة النبوية، وتولى بعض منهم القضاء في بلاده؛ مما جعل بلاد المغرب الإسلامي يتجه إلى فقه وقراءة أهل المدينة، والذي لا يزال الحال بها إلى يومنا هذا، رغم توالي الدول على المنطقة.

الكلمات المتاحة: قراءة أهل الشام، قراءة أهل العراق، قراءة أهل المدينة، المغرب الإسلامي، الفتوحات الإسلامية

Abstract:

Our research deals with the historical stages that the Qur'anic reading went through in the countries of Morocco and Andalusia, where we see the spread of Ibn Amer's reading during the period of the Umayyad caliphate, after which the reading of Hamzah spread, when the Abbasid rule took place, but with regard to Nafi's reading, it is primarily due to the huge number of students The knowledge who returned from the Prophet's city, and some of them assumed jurisdiction in his country, which made the countries of the Islamic Maghreb go to the jurisprudence and reading of the people of the city from the beginning of the third century AH to the present day .

¹ - المؤلف المرسل: سفيان رضوان صالح البريد الإلكتروني: redsofiane2014@gmail.com

1. مقدمة:

من الأمور المتعارف عليها كما هو معروف في بلاد المغرب، وحتى عند المشاركة وجميع المسلمين عموماً: أنّ القراءة المعروفة في هذه البلاد هي قراءة نافع¹، من رواية ورش أو قالون، لكن الكثير منا يجهل متى دخلت هذه القراءة؟، ومتى اشتهرت؟، وهل دخلت مع الفاتحين الأوائل؟، أم أنّ هناك قراءة أو قراءات أخرى كانت مشتهرة في هذه البلاد؟، وإذا كانت فبأي قراءة كانوا يقرؤون؟ وهل كانوا يقرؤون بالشاذ أو المتواتر؟ فإن كان بالمتواتر فهل كانت هناك عدة قراءات في تلك الفترة؟ أم كانت هناك قراءة ثم حلت محلها قراءة أخرى؟ وما إلى غير ذلك.

للإجابة على هذه الأسئلة، نضع في الحسبان أنّ قصد بيت الله الحرام، وزيارة الحرم المدني، وحلقات العلم التي كانت تقام في المسجد النبوي، من فقه وعقيدة وحديث وإقراء، قد تكون الباعث الأول الذي جعل المغاربة يتأثرون بمذهب الإمام مالك في الفقه، وبقراءة نافع في الإقراء، إذ لو نظرنا إلى تاريخ المغاربة منذ الفتح، فيما يخص حفظ القرآن، والعناية بالقراءة، والمعرفة بوجوه القراءات وطرقها، لو جدنا أنّ لهم الباع الطويل، والنفع الجزيل للأمة الإسلامية، لا يستطيع أحد إنكاره، حتى قال أحدهم: "إنّ علم القراءات هو الميدان الوحيد الذي سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة"²، ويقول ابن خلدون أيضاً: "فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم"³، وإنّ المتتبع الحاذق لتاريخ القراءات في هذه المنطقة؛ ليدرك هذه الحقيقة، بحيث يرى سيطرة أئمة القراء من هذه المنطقة على الأمد الأقصى، في تحقيق القراءات وتحرير الروايات والطرق، وعلى كل فليس موضوعنا إبراز ما حققه المغاربة في هذا المجال وبيان تفوقهم، وإنّما يتجلى موضوعنا بالدرجة الأولى في إبراز المعالم الأولى من تاريخ المدرسة القرآنية ببلاد المغرب والأندلس، من أول الفتح الإسلامي لهذه الديار، إلى حين تعرفها على قراءة نافع، على أيدي روادها، واعتمادهم قراءة رسمية إلى يوم الناس هذا.

ولقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي، مبرزاً في ذلك الطريق الذي سلكته القراءة على امتداد العصور الإسلامية الأولى، وقد جاء هذا المقال في مقدمة و تمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

2. القراءات القرآنية المنتشرة في بلاد المغرب والأندلس قبل قراءة نافع

1.2 دخول القرآن بلاد المغرب

الناظر في كتب التاريخ: يجد أنّ بداية اتصال أهل المغرب والأندلس بالمشاركة وقراءة القرآن يرجع إلى عهد الفتح الإسلامي، وكان ذلك في السنة الثانية والعشرين من الهجرة، أيام خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حيث يُعتبر هذا الفتح الأول، وقد انحصر في طرابلس الغرب فقط "ليبيا حالياً"، ولما ولي الخليفة الراشد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، الخلافة، عزل عمرو بن العاص، وعيّن مكانه عبد الله بن أبي السرح، الذي قاد هذا الأخير فتحاً ثانياً، بعد أمر من أمير المؤمنين، في السنة السابعة والعشرين من الهجرة، وشمل إفريقيا "تونس حالياً"، وضم الجيش العظيم: مروان بن الحكم وجمع كثير من بني أمية، وبشر كبير من بني أسد بن عبد العزى، وعبد الله بن الزبير بن العوام

¹ هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي بالولاء المدني، أحد القراء السبعة المشهورين، اشتهر في المدينة وانتهت إليه رئاسة القراءة فيها، وأقرأ الناس نيفاً وسبعين سنة، وتوفي بها سنة 169هـ. يُنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ج8، ص5.

² عبد العزيز الأهواني، كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة معهد المخطوطات، المجلد 1، ص118.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: محمد عبد الله الدرويش، مكتبة الهداية، دمشق، الطبعة الأولى، 2004م، ج2، ص353.

في عدة من قومه، وعبد الرحمن بن أبي بكر، رضي الله عنه، و عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن سائب، وبشر ابن أرطاة وغير هؤلاء من المهاجرين¹، ثم بعدها تواصل الفتح إلى باقي بلاد المغرب، مروراً بالمغرب الأوسط "الجزائر حالياً" والمغرب الأقصى، وصولاً إلى الأندلس، مع الفاتح البربري العظيم، طارق بن زياد، في سنة اثنين وتسعين من الهجرة²، وقد دخل مع هذا الفتح عشرات الصحابة، رضوان الله عليهم، ومعهم جيش من التابعين، ودخل معهم كتاب الله محفوظاً في الصدور، و مكتوباً في السطور، وقد كان هؤلاء الصحابة وبحق، رضوان الله عنهم، بمثابة المرشدين و الموجهين والمعلمين والمقرئين والمفسرين لكتاب الله، و المبلغين لسنة، رسول الله، صلى الله عليه و سلم.

وقبل التوسع في قضية الفتوحات وتأثيرها على المناطق المفتوحة، نرجع قليلاً ونلقي نظرة عن كيفية جمع القرآن، ونقول: إنَّ القرآن لم يجمع إلّا في خلافة أبي بكر، رضي الله عنه، بعد أن استحر القتل بالقرآن يوم اليمامة³؛ فخشى أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته، وكان هذا الجمع الأول، ثم جُمع الجمع الثاني زمن عثمان، رضي الله عنه، في مصحف واحد؛ و كان السبب في ذلك ما رواه البخاري في صحيحه، "عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أنَّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، رضي الله عنهما، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة، وقال حذيفة لعثمان أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى"⁴، فما كان من الخليفة إلا أن جمع القرآن على قراءة واحدة، مع اختلاف بين العلماء في عد المصاحف التي نسخها وأرسل بها إلى الأمصار، وقد ذكروا أقوالاً، نكتفي بما نقله الزركشي عن أبي عمرو الداني في المقنع، وهي أنَّ "أكثر العلماء على أنَّ عثمان لما كتب المصاحف جعلها على أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية واحداً، الكوفة والبصرة والشام وترك واحداً عنده، وقد قيل إنَّه جعلها سبع نسخ وزاد إلى مكة وإلى اليمن وإلى البحرين، قال: والأول أصح وعليه الأئمة"⁵، ولم يكتف بذلك فقط، بل بعث قارئاً لكل إقليم؛ يُعلِّم الناس القراءة الصحيحة؛ لأنَّ المصحف وقتئذ لم يكن ذا إعجام، وكان المعول الأكبر هو السماع والقراءة على الشيخ، فقد أرسل أبا موسى الأشعري إلى البصرة، وعبد الله بن مسعود الهذلي إلى الكوفة، وأبا الدرداء الخزرجي إلى الشام، وكان هؤلاء الأثر البالغ في الفقه والقراءات في تلك الأمصار، بله وكانوا ذوي شهرة، كما نقل ذلك السيوطي⁶، وقد تجرد على أيديهم طلبة اعتنوا بضبط القراءة أتم عناية، حتى صاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم، فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبه بن نصاح، ثم نافع بن أبي نعيم، وبمكة عبد الله بن كثير، وحيد بن قيس الأعرج، ومحمد بن محيصن، وبالكوفة يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثم حمزة، ثم الكسائي، وبالبصرة عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي، وبالشام عبد الله بن عامر، وقد اشتهر منهم هؤلاء في الآفاق الأئمة السبعة، نافع وقد أخذ عن سبعين من التابعين، وأبو عمرو وأخذ عن التابعين، وابن عامر وأخذ عن أبي الدرداء وأصحاب عثمان، وعاصم وأخذ عن التابعين، وحمزة وأخذ عن عاصم والأعمش والسيبيعي ومنصور بن

¹ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ج1، ص18.

² يُنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ج2، ص339.

³ يُنظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد الفضل أبو إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1376هـ/1957م، ج1، ص233.

⁴ محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ، ج6، ص183.

⁵ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 240.

⁶ يُنظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، ص197.

المعتمر وغيره، والكسائي وأخذ عن حمزة وأبي بكر بن عياش، ولقد كان لكل قارئ راويان على الأقل، فعن نافع: قالون وورش، وعن ابن كثير: قنبل والبيزي، وعن أبي عمرو: الدوري والسوسي، وعن ابن عامر: هشام وابن ذكوان، وعن عاصم: أبو بكر بن عياش وحفص، وعن حمزة: خلف وخلاد، وعن الكسائي: الدوري وأبو الحارث¹، وكان هذا فيما يخص جمع القرآن والتعرف على قراءه، أو بالأحرى النشاط العلمي، فماذا عن النشاط السياسي؟ ومدى تأثر وتأثير كل منهما في الآخر؟، والتلازم الكبير بينهما.

2.2 تعرف بلاد المغرب على القراءات القرآنية "قراءة ابن عامر الشامي"

بعد أن عرفنا النشاط العلمي، نتطرق الآن إلى النشاط السياسي، فنقول: بعد وقعة صفين والجملة، وما أعقبها من أمور؛ والتي نجم عنها تحول دار الخلافة من المدينة النبوية إلى دمشق، وكان ذلك سنة واحد وأربعين من الهجرة النبوية²، والتي عُرفت فيما بعد بالدولة الأموية، ومن المعروف التلازم الكبير بين السلطة السياسية والأحداث التاريخية من جهة، والمذهب الفقهي وحتى القراءة التي يُقرأ بها والقارئ المعتمد لذلك الإقليم التابع للسلطة العليا من جهة أخرى³، وبعد أن أصبحت دمشق عاصمة الخلافة، ومعظم الجيوش الفاتحة تنطلق منها، بقيادة الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، وكعادة أي جيش أو شعب من العاصمة، فهو متأثر لا محالة بالمذهب الفقهي في دار الخلافة، وبقراءة أهل البلد، وكل ما عليه بلده، كما قيل: "الناس على دين ملوكها"، فمثلا المذهب السائد في بلاد الشام في ذلك الوقت، هو مذهب الأوزاعي، حيث يقول المقرئ في هذا الشأن: "واعلم أنّ أهل الأندلس كانوا في القدم على مذهب الأوزاعي، وأهل الشام منذ أول الفتح"⁴، وأما القراءة، فقد أخذوا عن أبي الدرداء، كما أشرنا إليه من قبل، ونُسبت القراءة فيما بعد، إلى ابن عامر من القراء السبعة، وأصبحت هي القراءة المشهورة في بلاد الشام، وفي هذا المقام يقول ابن الجزري: "كان الناس بدمشق وسائر بلاد الشام حتى الجزيرة الفراتية وأعمالها، لا يأخذون إلا بقراءة ابن عامر، وما زال الأمر كذلك إلى حدود الخمسمائة"⁵، ويقول ابن مجاهد: "والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر"⁶، وبتوالي الفتوحات بدأت بلاد الإسلام تتوسع، وصولاً إلى الأندلس غرباً، قبل نهاية المائة الأولى للهجرة، وعلى هذا فلا غرابة أن

¹ المرجع السابق، ج1، ص198.

² ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، لبنان، الطبعة الأولى، ج8، ص23.

³ وهذا ما يتجلى واضحاً في العصر الحديث مع الدولة العثمانية، والتي كانت على مذهب أبي حنيفة، ومعروف في أنّ القارئ المعتمد عندهم هو حفص عن عاصم، وقد بسطت الدولة العثمانية سلطتها على معظم أرجاء العالم الإسلامي، فصارت ترسل أئمة وقضاة ومقرئين أتراكاً إلى كافة الأراضي التابعة لها، إضافة إلى ظهور الطباعة أثناء حكمهم، فطُبعت أكثر المصاحف بهذه الرواية، فانتشرت بذلك رواية حفص عن طريقهم؛ ولهذا نرى أغلب دول العالم تقرأ بهذه الرواية، ماعدا بلاد المغرب، وهذا راجع إلى كون هذه البلاد كانت تابعة إدارياً فقط، إضافة إلى تعلقهم الكبير بمذهب المالكية وقارئهم. يُنظر: محمد الزعي، مقدمة دراسة محمد تميم الزعي للمقدمة الجزرية، ص14-17.

⁴ المقرئ التلمساني، نفع الطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج2، ص185.

⁵ ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمود الضباع، الطبعة التجارية الكبرى، القاهرة، ج2، ص298.

⁶ أبو بكر بن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، 1400هـ، ص87.

تكون مع هؤلاء الفاتحين نسخ من مصاحف أهل الشام¹؛ وبالتالي تكون قراءتهم قراءة أهل الشام، هذا أولاً، يُضاف إلى ذلك الدور الكبير الذي كانت تلعبه بعثات الإقراء والإرشاد والتعليم، التي تُنتدب مع الجند أثناء الفتح و بعده، والتي كان لها الأثر البالغ في نشر القرآن و تعليمه، وخاصة بعثة عمر بن عبدالعزيز، التي كان لها عظيم الأثر في توحيد القراءة على وفق المصحف العثماني؛ وذلك لوصولها إلى هذه المناطق على رأس المائة الأولى من الهجرة، وهو زمن قطعت فيه القراءة الرسمية شوطاً بعيداً في الأمصار الإسلامية، باتساع جمهورها وبداية ظهور الأئمة الكبار، ومن أشهرهم في هذه الحقبة ابن عامر مُقرأً ديار الشام عاصمة الخلافة، وبما أنّ حديثنا عن بلاد المغرب والأندلس، سنذكر قراءة هذه البلاد دون غيرها من المناطق، فنرجع ونقول: إنّ بعد البعثات الكثيرة من أول الفتح إلى خلافة عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، أرسل هذا الأخير إلى بلاد المغرب الإسلامي في تسع وتسعين للهجرة²، بعثة تضم عشرة من خيرة التابعين؛ لتفقيه أهلها³ وإقراءهم القرآن، وعُرفت هذه البعثة بالبعثة العمرية، وقد رتبهم ترتيباً هجائياً؛ لأنّ في بعض منهم لا يوجد تاريخ وفاة، وهم:

1- إسماعيل بن عبيد الأنصاري مولى لهم، يعرف بتاجر الله وهو مؤسس جامع الزيتونة بالقيروان، صاحب جماعة من الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، كعبدالله بن عمر، و ابن عباس، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وروى عنه من أهل إفريقية: بكر بن سودة الجذامي، وعبدالرحمن بن زياد بن أنعم، وكان من سكان القيروان، ركب البحر في غزاة عطاء بن رافع، فغرق وهو متقلد المصحف، فحتم الله عز وجل أعماله بالشهادة، وكان ذلك سنة سبع ومائة، فرحمة الله عليه⁴.

2- إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر القرشي المخزومي، مولى لهم، وهو والي عمر بن عبد العزيز على إفريقية والمغرب، كان من صالحى أهل الشام وخيار الدمشقيين، وكان قد ولاه عمر بن عبدالعزيز جند إفريقية، ومات في خلافة مروان، سنة اثنين وثلاثين ومائة للهجرة، وهو معدود ضمن عداد البعثة العمرية وفي طليعتها⁵، وقد اقترن اسمه بظهور القراءة الجماعية في بلاد المغرب الإسلامي أو ما يُعرف اليوم بالحزب الراتب⁶، ويُعتبر من أبرز رواة قراءة أهل الشام عن عبد الله بن عامر اليحصبي، ومن قرأ القرآن على أنس بن مالك⁷.

¹ حتى إنّ بعضهم ذكر أنّ أحد المصاحف كان بجامع قرطبة. يُنظر: السعيد أعراب، القراء والقراءات بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م، ص9.

² يُنظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج1، ص48.

³ يُنظر: أبو بكر المالكي، رياض النفوس، تحقيق: محمد العروس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ص101.

⁴ أبو بكر المالكي، رياض النفوس، ج1، ص107.

⁵ المرجع السابق، ج، ص115.

⁶ يُنظر: عبد الهادي حيتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ج1، ص80.

⁷ أحمد بن أبي عمر الأندراي، قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين، تحقيق: أحمد نصيف الجنابي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ص81.

3-أبو ثامة بكر بن سودة الجذامي المصري الشامي الأصل، كان من أهل الفضل والدين، روى عن جماعة من الصحابة منهم عقبة بن عامر، وسهل بن سعد الساعدي، قال أبو سعيد بن يونس، كما ذكر المالكي في رياض النفوس: "وكان فقيها مفتيا سكن القيروان، وكانت وفاته بها سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة"¹.

4-جعتل بن عاهان بن عمير أبو سعيد الرعيني البصري، ذكر المالكي في رياض النفوس: "أنه أحد العشرة التابعين الذين أرسلهم عمر بن عبدالعزيز، وولي قضاء الجند بإفريقية لهشام بن عبد الملك، وقال عنه أيضا: "كان أحد القراء الفقهاء"²، وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب: "بعثه عمر بن عبدالعزيز إلى أهل المغرب؛ ليقرئهم القرآن"³، ويُعد جعتل هو أول من اهتم بالقراءات من أفراد البعثة، وفي الأثرين السابقين دليل على ذلك.

5-حبان بن أبي جبلة القرشي المصري، من موالي بني عبد الدار، كان من أهل الفضل و الديانة، روى عن جماعة من الصحابة، منهم ابن عباس وعمرو بن العاص وولده عبدالله، رضوان الله عليهم، سكن القيروان و انتفع به أهلها، وتوفي بها ما بين سنة اثنين وعشرين ومائة وخمس وعشرين ومائة للهجرة⁴.

6-سعد بن مسعود التجيبي المصري، وقد كان رجلا فاضلا مشهورا بالدين، سحب جماعة من الصحابة، وروى عنهم، كأبي الدرداء وغيره، وروى عنه خلق كثير من التابعين: كعبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وقد ذكروا أنه بث في القيروان علما كثيرا، رحمه الله رحمة واسعة⁵.

7-طلق بن جابان الفارسي، وهو معدود في العشرة التابعين⁶، روى عن أبي سلمة عبد الرحمن المدني من التابعين، أما الرواة عنه، فمنهم: عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، و موسى بن علي بن رباح، ومن المصريين سعيد بن أبي أيوب⁷.

8-عبد الرحمن بن رافع أبو جهم التنوخي المصري، من فضلاء التابعين، سكن القيروان وانتفع به خلق كثير من أهلها، وهو أول من استقضى بها بعد فتحها، ولاه عليها موسى بن نصير، سنة ثمانين للهجرة، وتوفي بالقيروان سنة ثلاث عشرة ومائة للهجرة، رحمه الله⁸.

9-عبد الله بن يزيد أبو عبد الرحمن الحبلي المعافري، من خيرة فقهاء التابعين، توفي بالقيروان سنة مائة للهجرة، بعد أن انتفع بعلمه خلق كثير من أهل القيروان، روى عن أبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن عامر، وفُضالة بن

¹ أبو بكر المالكي، رياض النفوس، ج1، ص112-113.

² المرجع السابق، ج1، ص114.

³ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ج2، ص79.

⁴ أبو بكر المالكي، رياض النفوس، ج1، ص111-112.

⁵ المرجع السابق، ج1، ص102.

⁶ أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب، بيروت، ص20.

⁷ أبو بكر المالكي، رياض النفوس، ج1، ص118.

⁸ المرجع السابق، ج1، ص100.

عبيد وغيرهم من الصحابة، رضوان الله عليهم¹، ويظهر أنه أخذ القراءة خاصة عن عقبة بن عامر الجهني، الصحابي الجليل، رضي الله عنه؛ لأنه يصفه بأنه: " كان من أحسن الناس صوتا بالقرآن"².

10- موهب بن حي المعافري، من أهل الفضل والديانة، صحب ابن عباس رضي الله عنهما، وروى عنه وعن غيره من الصحابة الأبرار، سكن القيروان وبث فيها علما غزيرا، وفيها كانت وفاته، رحمه الله³.

"فهؤلاء العشرة هم أعضاء البعثة العمرية، وهم طليعة الرعيل الأول من القراء والمقرئين⁴ بإفريقية والمغرب، بعد الفاتحين الأولين من الصحابة، وكبار التابعين، رضي الله عنهم"⁵، و" قد كانت مهمة البعثة متمثلة في بث العلم في إفريقية؛ لتفقيه أهلها، وتعليمهم الحلال والحرام، والحكم بينهم بمقتضى ذلك، وأخيرا إقرائهم القرآن"⁶، وكما نلاحظ فقد استقر كلهم في القيروان، عاصمة المغرب والأندلس، ومعلوم ما للعاصمة من أثر وقوة نفوذ على باقي المناطق التي تحتها، خاصة إذا أخذنا في الحسبان تولي بعضهم القضاء⁷، وحتى تكتمل الصورة عن هذه الحقبة بالمغرب والأندلس وعن تطور علم القراءات بهذا القطر، واستقرار قراءة ابن عامر، أو بالأحرى ما عليه أهل الشام، نذكر أمور أخرى ساعدت في انتشار هذه القراءة، فمنها:

1- إقامة المساجد الجامعة والخاصة، وتنصيب الأئمة والمقرئين بها؛ وذلك للدور الكبير للمساجد في الإسلام، وخاصة في الأندلس، الذين لم تكن لهم مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد⁸؛ لذلك نجد الاهتمام الكبير للفاثحين، كلما تيسر لهم فتح بلاد، نجدهم أول ما يصنعون إقامة مسجد⁹، وهذا اقتداء بالنبي، صلى الله عليه وسلم، حين دخوله المدينة، وإن المتتبع لحركة إنشاء المساجد في هذا الفترة، يلاحظ العناية البالغة بها، رغم قلة الإمكانيات وضعف الموارد، إلى جانب المساجد الخاصة التي كان يُقيمها المتطوعون،

¹ المرجع السابق، ج1، ص100.

² شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ج2، ص306.

³ أبو بكر المالكي، رياض النفوس، ج1، ص110.

⁴ لكن بنظرة دقيقة متفحصنة لترجمتهم، نجد أنها لم تذكر أنهم كانوا قراء أو مقرئين، سوى جعل، بل إن أكثرهم كانا فقيها أو واليا أو ما أشبه ذلك، وبهذا نخرج بنتيجة وهي إما لم يكونوا قراء بالمعنى الدقيق، وهذا مستبعد!، وإما أن فيه إهمالا من طرف كتب التراجم في ذكر عنايتهم بالقرآن والقراءات، وإما أن نقول أن جعلنا فقط، هو الذي اهتم بالإقراء والقراءات.

⁵ عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص89.

⁶ يُنظر: هند شلي، القراءات بإفريقية من الفتح إلى القرن الخامس هجري، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1983م، ص128.

⁷ يُنظر: عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص40.

⁸ المقرئ التلمساني، نفح الطيب، ج1، ص220.

⁹ كما فعل عقبة بن نافع لما بنى مدينة القيروان سنة واحد وخمسين للهجرة. يُنظر: ابن غذارى المراكشي، البيان المغرب، ج1، ص20. وكما بنى موسى بن نصير مسجد في الجزيرة الخضراء بالأندلس. يُنظر: غدير الشريف، مدرسة القراءات في الأندلس، التعريف والنشأة والخصائص، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد الرابع، العدد الثالث والثلاثين، ص747.

ويجعلون منها في الوقت نفسه محاضر لتعليم القرآن¹، بالإضافة إلى عظم هذه المساجد أحيانا، وقد قيل إنّ عنبسة بن خارجة الغافقي أقام بالقيروان مسجدا فيه نحو عشرين سارية عظيمة²، يُضاف إلى ذلك كثرة هذه المساجد في بعض الأوقات، حيث ذكر أبو العباس المقرئ عن قرطبة وأرباضها: "أنّ المساجد بها في أيام عبد الرحمان الناصر وصلت إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجدا"³، ولا يخفى على أحد في وجود هذه المساجد، من كثرة وعظمة، من تأثير عام في مجال توجيه القرّاء، وتوحيدها على نمط واحد في الأداء والقراءة، وخاصة بعد ظهور القراءة الجماعية مع إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر القرشي المخزومي، أو فيما يُعرف بـ "الحزب الراتب"؛ مما يتوجب على الجميع القراءة على رواية واحدة، ألا وهي قراءة أهل الشام.

2- ثم إنّ ظهور مكاتب وملحقات لتعليم القرآن بأجنحة المساجد، وهو ما يُعرف اليوم بالمدارس القرآنية، وقد نجدها في بعض الأحيان مفصولة عن المسجد، فنجدها في القرى والمدائن، قد كان لها دور وأثر علمي كبير وفَعّال في مجال حفظ القرآن، ومعرفة قراءاته ورواياته⁴، وقد جعل هذا التعليم للصغار خاصة؛ مما جعل أهل المغرب يتفوقون على غيرهم، في العناية بكتاب الله، من ضبط للقراءة وإحكامها، حيث نجد ابن خلدون يقول في هذا المقام: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر، أمم المغرب في ولدانهم، إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشببية، وكذا في الكبير إذا راجع مدارس القرآن، بعد طائفة من عمره، فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم"⁵، عكس الأقطار الأخرى خاصة المشاركة التي قال فيها ابن العربي أثناء رحلته هناك: "ومنهم وهم الأكثر من يؤخر حفظ القرآن، ويتعلم الفقه والحديث، وما شاء الله فرمما كان إماما، وهو لا يحفظه، وما رأيت بعيني إماما يحفظ القرآن، ولا رأيت فقيها يحفظه إلا اثنين، ذلك لتعلموا أن المقصود حدوده لا حروفه؛ وعلقت القلوب اليوم بالحروف، وضيعوا الحدود"⁶.

3- إنّ العناية الكبيرة بالمصاحف، والتي كان لها الأثر الكبير في تعليم القرآن وتعميمه، ومعلوم أنّ القرآن الكريم كما دخل بلاد المغرب محفوظا في الصدور، دخل إليها في الوقت نفسه مكتوبا في السطور، ولا شك أنّ المصاحف الأولى التي دخل بها الصحابة والتابعون، قد كان لها أثرها في دعم حركة التعليم والإقراء، وتزويد المكاتب بوسيلة أساسية يستأنس بها المتعلمون، ويرجع إليها المعلمون في تصحيح التلاوة،

¹ عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص46.

² القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: ابن تاووت الطنجي، مطبعة فضالة، المغرب، الطبعة الأولى، ج3، ص319.

³ المقرئ التلمساني، أزهار الرياض، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ج2، ص272.

⁴ عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص54.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص353.

⁶ أبو بكر بن العربي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ج7، ص491.

وتحقيق الحروف، ونحو ذلك عند الاقتضاء¹، وقد ذكر العبدري في رحلته إلى القيروان، ما يدل على وجود مصاحف في القيروان حيث يقول: "ودخلنا بيت الكتب فأخرجت لنا مصاحف كثيرة بخط مشرقى... ورأيت بها مصحفا كاملا بين لوحين مجلدين غير منقوط ولا مشكول... وذكروا أنه الذي بعثه عثمان، رضي الله عنه، إلى المغرب، وأنه بخط عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما"²، بل قيل إنه وجد في القيروان مصحف على قراءة ابن عامر³.

ومنه نستخلص من هذه العوامل، والعامل الذي ذكرناه سابقا، وبالتتبع والاستقراء للأحداث، والربط بين الأمور السياسية والاجتماعية والعلمية، وكذا الاستعانة ببعض الشذرات من الإشارات في المصادر⁴، جزمنا جزما قاطعا، في القول ب بروز قراءة أهل الشام، كتحتية منطقية، تجعل من هذه البلاد في هذه الفترة من الفتح، تتبع قراءة ابن عامر في قراءة القرآن، من رواية هشام⁵، والمذهب الفقهي على ما كان عليه أهل الشام، من بروز اختيارات الأوزاعي، وبالتالي: فلا ريب أن ينعكس الموقف الشامي على الجهات المغاربية، بحكم التبعية السياسية، وهيمنة العناصر الشامية في الجملة، في زمن بني أمية سواء في معسكرات الجند أو على صعيد البعثات والهيئات التعليمية، يُضاف إلى ذلك، إذا أخذنا في الحسبان، سعي الدولة الأموية إلى توحيد القراءة وحروفها على وفق المصحف العثماني، خصوصا في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي⁶، يقول عبد الهادي حميتو بهذا الصدد: "الظاهر الذي تقتضيه طبيعة الأشياء، بحكم ما قدمنا من عوامل: أن تكون القراءة الشامية هي المرشحة وحدها لهذه الغاية يومئذ، بحكم غلبة العناصر الشامية، وكون الأمراء على إفريقية والأندلس إنما ينتدبون منها، ولمكان إسماعيل بن أبي مهاجر، قارئاً وواليا وواحدا من أعضاء البعثة العمرية، ذلك أنّ المدار في هذا كان على قراءة إمام أهل الشام، عبد الله بن عامر اليحصبي، وهو شيخ إسماعيل بن أبي مهاجر... فلا بد إذن في أن يكون في طليعة من قام بنشرها في ولايته"⁷، ولا يمكن تحديد مدة بقائها، سوى القول بأنها بقيت إلى سقوط خلافة بني أمية، في سنة اثنين وثلاثين ومائة للهجرة على يد العباسيين⁸.

3.2 . دخول قراءة حمزة بلاد المغرب:

بعد تغير الحكم السياسي، وانتقال الخلافة إلى العراق وبالضبط إلى الكوفة⁹، ثم بعد ذلك إلى الأنبار ثم استقرت في بغداد زمن المنصور، سنة خمس وأربعين ومائة¹، ومن المعلوم أنه ستحصل تغيرات جزاء هذا التغير، ومنها فرض مذهب أهل الكوفة، سواء في الفقه أو القارئ الذي

¹ عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص59.

² أبو عبد الله العبدري المالكي، رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الثانية، ص65.

³ يُنظر: هند شلبي، القراءات بإفريقية، ص207.

⁴ من ذلك ما قاله المقرئ في نفح الطيب: "واعلم أنّ أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي، وأهل الشام منذ أول الفتح". المقرئ التلمساني، نفح الطيب، ج2، ص185. وأيضا ذكر الحميدي: أنّ صعصعة بن سلام الأندلسي، هو أول من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي؛ وبالتالي أدخل معه قراءته. يُنظر: محمد بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1966م، ج1، ص244.

⁵ يُنظر: سعد بن عبد الله الحميد، لماذا اختار المغاربة رواية ورش، مقال على الشبكة العنكبوتية، المجلس العلمي، الألوكة.

⁶ يُنظر: عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص76.

⁷ المرجع السابق، ج1، ص82-83.

⁸ يُنظر: ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج10، ص44.

⁹ يُنظر: المرجع السابق، ج10، ص44.

يقرأون به، وسيأتي القول: في أنّ القراءة المعروفة في أول الأمر ومن سارت إليه رئاسة الإقراء في الكوفة هي قراءة حمزة بن حبيب الزيات، ومن الضروري أن تتأثر الأقاليم المنضوية تحت الخلافة العباسية ممّا عليه أهل العاصمة، ولقد عُدت بلاد المغرب في بداية الأمر ولاية تابعة لبني العباس وخاضعة لنفوذهم، ولقد تأثرت كغيرها من الأقاليم بالتطورات التاريخية المتسارعة، التي وقعت في المشرق الإسلامي، أمّا الأندلس فبقيت تابعة لبني أمية بعد أن دخلها عبد الرحمن الداخل سنة ثمان وثلاثين ومائة²؛ مما أجبر الناس بصفة عامة إلى اعتناق المذهب الفكري لعاصمة الخلافة، وتبني اتجاهها في كل شيء؛ وذلك مما أدى إلى دخول المذاهب العراقية إلى بلاد المغرب، إمّا عن طريق الدولة والقضاء الرسمي، وإمّا عن طريق الرحلات العلمية إلى حواضر العراق البصرة والكوفة وواسط، ثم بغداد وسامراء وغيرها³، وقد سادت في الكوفة، عاصمة الخلافة في أول الأمر، قراءة حمزة بن حبيب الزيات، فقد ذكر ابن مجاهد عن محمد بن الهيثم المقرئ قوله: "أدركت الكوفة ومسجدها الغالب عليه قراءة حمزة، ولا أعلمني أدركت حلقة من حلق المسجد يقرأون بقراءة عاصم"⁴، وامتد هذا الأمر إلى عهد ابن مجاهد⁵، حيث يقول: "وصار الغالب على أهل الكوفة إلى اليوم قراءة حمزة بن حبيب الزيات"⁶، وقد كان حافز الرحلات العلمية إلى الحواضر الكبرى في بلاد المشرق إمّا لأداء فريضة الحج بالدرجة الأولى أو لقاء الشيوخ والعلماء؛ للتعرف عليهم دافعا قويا لطلبة بلاد المغرب؛ للإقبال على هذه البلاد والتفقه على علماءها، فبالإضافة إلى بلاد الحجاز، كانت الحركة العلمية مزدهرة في بلاد العراق، وخاصة البصرة والكوفة، سواء في الفقه أو الحديث أو الإقراء، وقد نالت الكوفة الحظ الوافر من هذه الرحلات في هذه الحقبة، خاصة إذا علمنا أنّ فيها قطبين عظيمين من علماء الإسلام هما: سفيان الثوري والأعمش، واللذان يعدان في طبقة القراء، وقراءتهما هي قراءة حمزة⁷، بالإضافة إلى الباع الكبير في الحديث والفقه، ولا شك أن يتأثر طلبة العلم المغاربة بالقراءة السائدة في هذه البلاد، حيث يُعلق الدكتور عبد الهادي حميتو في هذا الشأن: "إذ ليس بالأمر المعتاد أن يُقيم طالب العلم في بلد يجد بين قراءة أهله وبين قراءته، نحو الفوارق التي بين حمزة وبين قراءة غيره، دون أن يُحفر ذلك على محاولة رصد هذا الخلاف، ورواية أصوله وحروفه!"⁸، خاصة إذا أخذنا في الحسبان أنّ بعض من هؤلاء الطلبة ولي القضاء، وكلنا يعلم ما للقاضي من تأثير عام في الرأي العام، ومن هؤلاء الطلبة أسد بن الفرات⁹، وعلي بن زياد¹، والبهلول بن راشد الحجري²، وغيرهم كثير

¹ يُنظر: ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج10، ص103.

² يُنظر: المرجع السابق، ج10، ص79.

³ يُنظر: عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص96.

⁴ أبو بكر بن مجاهد، السبعة في القراءات، ص71-72.

⁵ المتوفى سنة أربع وعشرين وثلاث مائة. يُنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص261.

⁶ أبو بكر بن مجاهد، السبعة في القراءات، ج1، ص71.

⁷ يُنظر: هند شلبي، القراءات بإفريقية، ص210.

⁸ عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص104.

⁹ هو أسد بن الفرات بن سنان القاضي الفقيه، رحل إلى المشرق وسمع من مالك بن أنس ومن أبي يوسف ومحمد بن الحسن، صاحب أبي حنيفة، ولي القضاء بالقيروان، توفي أربعة عشرة ومائتين للهجرة. يُنظر: أبو بكر المالكي، رياض النفوس، ج1، ص255.

أعرضنا عن ذكرهم طلباً للاختصار، بل زيادة على ذلك، عرف هذا الوقت دخول جماعة من أهل الكوفة إلى إفريقية، وتولي بعضهم مراكز مهمة، كالقضاء وغيره من شؤون الدولة؛ مما يساهم أكثر في نشر ما عليه أهل الكوفة من القارئ المعتمد عندهم، فمن هؤلاء الجماعة التي دخلت القيروان، نذكر منهم، عبد الله بن المغيرة الكوفي³، وأبو سليمان النحوي⁴، وغيرهم كثير، إضافة إلى ذلك فقد ذكر بعض الباحثين أنه يوجد في القيروان مصحف مكتوب بقراءة حمزة، وذكر مثال في ذلك سورة الفرقان، في قوله تعالى: "وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً"⁵، حيث وردت في الخط "أن يذكر"⁶، وهي في مصحف فضل⁷.

وبعد: فكل هذه العوامل تجعلنا نخرج بخلاصة، وهي القول بأن القراءة التي سادت بلاد المغرب، بعد سقوط خلافة بني أمية هي قراءة حمزة، وفي هذا يقول الدكتور عبد الهادي حميتو: "وبهذا نقول بكل اطمئنان عن تعرف إفريقية والمناطق التابعة لها على قراءة حمزة، وتمكنها فيها واحتوائها على جمهرة القارئ، وهيمنتها على المتعلمين تبعاً لذلك"⁸، وما لا يدع مجالاً للشك في أن القراءة الغالبة في بلاد المغرب الإسلامي هي قراءة حمزة، ما نقله ابن الفرضي في سياق حديثه عن أحد أعلام القراء الأندلسيين، الذين دخلوا بقراءة نافع إلى إفريقية، وهو محمد بن خيرون المقرئ، فقد ذكر أنه: "قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية، وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة"⁹، ومن كلامه يُعلم أنه قبل انتشار قراءة نافع، واندثار قراءة ابن عامر، كانت قراءة حمزة هي المنتشرة بإفريقية عموماً؛ هذا لأنّ تحديد زمن معين بوجود قراءة وذهاب أخرى من الصعب بمكان، فلا يُستغرب أن يكون في هذا الوقت عدة قراءات¹⁰، والقراءة الغالبة هي قراءة حمزة.

4.2. دخول قراءة نافع لبلاد المغرب:

بعد هذا بدأت بلاد المغرب تنفصل عن بلاد المشرق في الشأن السياسي؛ مما أحدث ظهور بعض الدويلات الخاضعة لحكم مستقل عن عاصمة الخلافة في بغداد، فمنها دولة بني الأغلب في شقها الثاني، ومنها دولة الرستمية، بعد أن كانت الأولى، أي دولة الأغلبة، تتبنى فقه

¹ هو أبو الحسن علي بن زياد العبسي التونسي، وُلد بطرابلس وانتقل إلى تونس، ثم رحل إلى المشرق فسمع من مالك والثوري والليث بن سعد وغيرهم، تُوفي سنة ثلاث وثمانين ومائة للهجرة. يُنظر: أبو بكر المالكي، رياض النفوس، ج1، ص234-237.

² وُلد سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة، تلقى العلم بالقيروان، رحل إلى العراق كما رحل إلى الحجاز، وسمع من مالك والليث بن سعد وسفيان الثوري وغيرهم، تُوفي سنة 183هـ. يُنظر: أبو بكر المالكي، رياض النفوس، ج1، ص214.

³ أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، ص161-162.

⁴ ابن الجزري، غاية النهاية، تحقيق: برجستراسر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1351هـ، ج2، ص353.

⁵ سورة الفرقان، الآية 62.

⁶ وهي قراءة حمزة، نص عليها ابن مجاهد. يُنظر: أبو بكر بن مجاهد، السبعة في القراءات، ص272.

⁷ يُنظر: هند شلبي، القراءات بإفريقية، ص193-196.

⁸ عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص104.

⁹ ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ج2، ص799.

¹⁰ بعضهم أثبت وجود قراءة أبي عمرو بن علاء البصري. يُنظر: هند شلبي، القراءات بإفريقية، ص207-208.

أهل العراق في أول الأمر¹، وغيرها من الدويلات التي أسهمت سياستها من تبني أهل المغرب مذهباً فقهياً جديداً، وقارئاً معتمداً يقرؤون به في قراءتهم، وانتشر مذهب أهل المدينة، ومعه قراءتهم، وهي قراءة نافع، سائر بلاد المغرب والأندلس، ويرجع هذا بالدرجة الأولى إلى الرحلات العلمية الكبيرة من طلبة العلم إلى بلاد الحجاز، بداية منتصف الثاني الهجري، وخاصة المدينة، والتي كان فيها مالك، والقارئ نافع أبرز علمائها، وقد أُعتبر الإمامان نافع بن أبي نعيم ومالك بن أنس، علمي المدينة النبوية، ومرجعيهما في القرآن والفقه، فقد كانت لكل واحد منهما حلقة للتعليم والرواية في رحاب المسجد النبوي بالمدينة، مما كان يتيح لصاحب الرحلة أن يأخذ عن هذين الإمامين معاً في وقت واحد، وأن يعود إلى بلاده بعد ذلك يحمل في صدره هذا الرصيد الفريد، الذي ينافس به أهل حيله، ويتجلى في الجمع بين رواية القراءة المدنية عن إمامها نافع بن أبي نعيم، والفقه المدني المالكي عن إمام أهل المدينة مالك بن أنس، وخاصة مع اضطراب الأحداث في عاصمة الخلافة، بعد مقتل الأمين بن هارون الرشيد؛ وما نتج عنه من فتن من أجل الحكم، إضافة إلى وفاة معظم أعلامها كالأعمش، الذي توفي سنة ثمان وأربعين ومائة للهجرة²، وحمزة بن حبيب الزيات، المتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة³، وسفيان الثوري، المتوفى سنة إحدى وستين ومائة⁴، الأمر الذي أدى إلى إحجام الناس عن الرحلة إلى العراق، وإقبالهم على المدينة النبوية؛ مما أسهم هذا كثيراً في نشر مذهب مالك وقراءة نافع، غداة العودة إلى أوطانهم، محملين بالعلم الوافر، وقد ذكروا أنّ أقدم من جمع بين الرواية عن هذين الإمامين ودخل بها البلاد: هو الإمام أبو محمد الغازي بن قيس القرطبي، المتوفى سنة تسع وتسعين ومائة للهجرة⁵، والذي رحل من قرطبة، بعد منتصف القرن الثاني في إمارة عبد الرحمن الداخل الأموي أمير قرطبة والأندلس، المعروف بصقر قریش، فأقام بالمدينة مدة قرأ فيها على نافع ومالك، وروى عنه الموطأ، وهو أول من دخل بالقراءة المدنية والمذهب المالكي ورواية الموطأ إلى المغرب، كما أنّه عرض مصحفه على مصحف نافع وأهل المدينة ثلاث عشرة أو أربع عشرة مرة⁶، بعدها بدأ في أوائل المائة الثالثة انتشار مذهب مالك وقراءة نافع في بلاد المغرب والأندلس، يقول الإمام الذهبي في معرفة القراء: "ولم كان أبي الأزهر عبد الصمد العتقي، من أصحاب مالك اعتمد الأندلسيون قراءة ورش"⁷، ومن رحل من الأندلس أيضاً محمد بن عبد الله القرطبي، فقرأ على ورش ورجع إلى قرطبة فاشتغل بالتعليم⁸، وتواصلت الرحلة لهذا الغرض فدخلت رواية ورش بصورة أقوى، على يد أبي عبد الله محمد بن وضاح القرطبي، المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين للهجرة، الذي رحل من قرطبة فدخل

¹ عباس الجارري، أسباب انتشار المذهب المالكي، ندوة القاضي عياض، ج1، ص180.

² ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج10، ص112.

³ خير الدين الزركلي، الأعلام، ج2، ص277.

⁴ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت، ج7، ص279.

⁵ يكنى أبا محمد، رحل قديماً فسمع من مالك الموطأ، وسمع من ابن أبي ذئب، وهو أول من أدخل موطأ مالك وقراءة نافع الأندلس، فيما قاله أبو عمرو المقرئ، توفي تسع وتسعين ومائة للهجرة. يُنظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1، ص122.

⁶ يُنظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج1، ص276.

⁷ شمس الدين الذهبي، معرفة القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ج1، ص150.

⁸ ابن الجزري، غاية النهاية، ج2، ص189.

مصر، وقرأ برواية ورش على صاحبه أبي الأزهر عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم العتقي، المتوفى سنة أربع وثلاثين ومائتين¹، ومن العوامل التي ساعدت أيضا في انتشار قراءة نافع في بلاد المغرب والأندلس: أنّ مصر كانت تقرأ بقراءة نافع في أول الأمر، واستمر إلى القرن الخامس هجري، كما ذكر ذلك الشيخ علي الضباع في الإضاءة، حيث نجده يقول: "كانت قراءة عامة المصريين على ما ظهر لي، من تتبع سيرّ القراء وتأليفهم، منذ الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن الخامس الهجري، على طريقة أهل المدينة المنورة، سيما التي رواها ورش المصري عن نافع القارئ المدني"²، وفي زمن متأخر وبحكم الجوار والتبعية السياسية تأثر المغرب والأندلس بهذه القراءة، رغم عدم التأثر بها في أول الفتح، لكن بعد المائة الثانية أقبل طلبة العلم على مصر أيضا، وغلوا من علمائها، وقد ذكرنا بعضا منهم في الأسطر السابقة، ومن العوامل التي ساهمت في انتشار هذه القراءة على ما ذكرنا: أنّ ورشا أصله مغربي قيرواني، فأصل والده من تونس ورحل إلى مصر³؛ هذا ما جعل أهل المغرب يختارونه دون سائر القراء، وقد بدأت قراءة نافع في الانتشار في بلاد المغرب والأندلس بشكل تدريجي، في زمن سحنون المالكي، المتوفى سنة أربعين ومائتين⁴، حتى أصبحت هي القراءة المعتمدة في هذه البلاد، وتغلبت على قراءة حمزة في النصف الثاني من القرن الثالث⁵، وفي هذا يقول عبد الهادي حميتو: "ونخلص من هذا إلى تأكيد انتشار قراءة نافع بإفريقية ... في زمن سحنون، وربما في العقود الأولى من المائة الثالثة، ثم تزايد الإقبال عليها من لدن الجمهور؛ بتدخل من السلطة القضائية لصالحها، وبالأخص على عهد ولاية سحنون للقضاء، سنة أربع وثلاثين ومائتين"⁶، وتم التحول الأغلب من مذهب الكوفة: الفقه الحنفي وقراءة حمزة، إلى مذهب المدينة: الفقه المالكي وقراءة نافع على يد سحنون وتلامذته، إذ في عهد تصدّره، ما بين عودته من رحلته، سنة إحدى وتسعين ومائة، وبين وفاته سنة أربعين ومائتين، تمت النقلة العظيمة في إفريقية والجهات المغربية التابعة لها إلى مذاهب أهل المدينة، وتم وضع الأسس العتيقة لها بالمنطقة"⁷، يقول القاضي عياض ملخصا كل هذا: "إنّ إفريقية وما وراءها من المغرب، كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين"⁸، إلى أن دخل علي بن زياد، وابن أشرس، والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك، فأخذ به كثير من الناس، ولم يزل يفتشو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه، وفض حلق المخالفين"⁹، وقال أيضا: "ذكر أبو عمرو الداني في كتابه طبقات القراء والمقرئين: أنّ ابن طالب من أصحاب

¹ المرجع السابق، ج2، ص275.

² علي الضباع، الإضاءة في بيان أصول القراءة، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ص72.

³ يُنظر: تاريخ دخول القرآن إلى المغرب، مقال على الشبكة العنكبوتية.

⁴ هو عبد السلام بن سعيد التنوخي القيرواني، رحل في طلب العلم إلى مصر سنة ثمان وسبعين ومائة للهجرة، ثم عاد إلى بلده، ثم رحل بعد ذلك إلى المدينة، وسمع من كبار أصحاب مالك، ثم رجع إلى إفريقية سنة واحد وتسعين ومائة للهجرة، بعدها ولي القضاء سنة ثلاث وأربعين ومائتين، وهو صاحب المدونة الكبرى على مذهب مالك، توفي أربعين ومائتين. يُنظر: القاض عياض، ترتيب المدارك، ج4، ص45.

⁵ هند شلي، القراءات بأفريقية، ص188.

⁶ عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، ج1، ص138.

⁷ المرجع السابق، ج1، ص136.

⁸ ويقصد بمذهب الكوفيين، الفقه والقراءة، وهذا تأكيد لما أشرنا إليه سابقا.

⁹ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1، ص25.

سحنون أيام قضائه، أمر ابن برغوث المقرئ، المتوفى سنة اثنين وسبعين ومائتين للهجرة، بجامع القيروان، ألا يقرئ الناس إلا بحرف نافع¹، حتى قيل عنه، أي سحنون، أنه أخذ بمذهب أهل المدينة في كل شيء²، وعلل ابن الجزري هذا التحول، من قراءة حمزة إلى قراءة نافع، بتحولهم إلى الفقه المالكي³، وبعضهم علل هذا التحول إلى كثرة طلبة نافع في بلاد الغرب الإسلامي⁴. مما سبق ذكره من ذكر طلبة العلم، الذين رحلوا إلى المشرق⁵ وأدخلوا قراءة نافع، يتبين أن أهل الأندلس هم من كان لهم الفضل الكبير في إدخال قراءة نافع إلى بلاد المغرب، ومما يجدر أن نذكر به في هذا المقام، بعد سقوط الأندلس وانقسام دول المغرب، اختار كل قطر رواية من رواية نافع، إذ أن أهل المغرب الأدنى "ليبيا وتونس" انتشرت فيهم رواية قالون عن نافع؛ لسهولة وخطوها من المدود الطويلة والإمالات، التي في رواية ورش، وأما البلدان الأخرى من بلدان المغرب العربي، فاختارت رواية ورش، وقد لخص الطاهر بن عاشور جميع القراءات الموجودة اليوم، بقوله: "إنَّ القراءات التي يُقرأ بها اليوم في بلاد الإسلام، هي: قراءة نافع براوية قالون، في بعض القطر التونسي، وبعض القطر المصري، وفي ليبيا، وبرواية ورش في بعض القطر التونسي، وبعض القطر المصري، وفي جميع القطر الجزائري، وجميع المغرب الأقصى، وما يتبعه من البلاد والسودان، وقراءة عاصم براوية حفص عنه في جميع المشرق، وغالب البلاد المصرية، والهند، وباكستان، وتركيا، وأفغان، ... وبلغني أن قراءة أبي عمرو البصري يُقرأ بها في السودان المجاور لمصر"⁶.

3. خاتمة:

ونخلص في الأخير إلى بيان نقطتين مهمتين

- 1- النقطة الأولى: الدور الفعال الذي تلعبه السلطة السياسية على مذهب البلد أو قراءته، إذ أنها هي السلطة الوحيدة المخول لها في توجيه الرأي العام، وهذا ما ظهر واضحا في بحثنا هذا، حيث مرت بلاد المغرب والأندلس بأحداث سياسية متغيرة؛ جعلها في كل مرة تتبنى مذهب فقهي معين وقراءة معتمدة، ويمكن أن نحصرها في ثلاث مراحل:
- مرحلة سيطرة العنصر الشامي؛ مما جعلها تختار ما عليه دار الخلافة في ذلك الزمن، ألا هو مذهب الأوزاعي في الفقه، وقراءة ابن عامر في قراءة القرآن، ويمكن تحديده تقريبا منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، إلى حوالى سقوط خلافة بني أمية سنة اثنين وثلاثين ومائة للهجرة، أي ما يقرب مائة سنة.

¹ المرجع السابق، ج4، ص313.

² المرجع السابق، ج4، ص53.

³ يُنظر: غدير الشريف، مدرسة القراءات في الأندلس، ص753.

⁴ يُنظر: هند شلي، القراءات بإفريقية، ص241.

⁵ وقد أوصلهم القاضي عياض إلى أكثر من ألف طالب. يُنظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج2، ص180-224.

⁶ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ، ج1، ص63.

- مرحلة دخول عدد كبير من أهل العراق إلى هذه البلاد؛ مما نتج عنه التأثير بما عليه دار الخلافة، خاصة أهل الكوفة، حيث نجد غلبة مذهب أبي حنيفة في الفقه، وقراءة حمزة، ويمكن تحديده زمنيا تقريبا، من بعد سقوط خلافة بني أمية إلى نهاية المائة الثانية، أي ما يقرب سبعين سنة، والتي من خلالها نلاحظ بداية انفصال بلاد المغرب عن المشرق، بظهور دويلات، مثل: الأدارسة، والأغالبة، و الرستمية، وغيرها.

-مرحلة عودة طلبة العلم المغاربة والأندلسيين إلى بلادهم، بعد أن نخلوا علما عزيزا في بلاد المشرق، وبخاصة المدينة، أين كان مذهب مالك في الفقه، وقراءة نافع مسيطرتان في تلك البلاد؛ مما أثر هذا على طلاب العلم العائدين إلى أرضهم؛ مما أسهم في بروز فقه مالك، وقراءة نافع في بلاد المغرب الإسلامي، ويمتد من بداية المائة الثالثة إلى يومنا هذا، باستثناء سقوط دولة الأندلس سنة سبع وتسعين وثمانمائة للهجرة، ومازال الناس في هذه البلاد يتوارثون هذه القراءة والفقه المالكي، ولم يحدوا عنه رغم تغير الظروف السياسية الكثيرة، خاصة الدولة العثمانية، التي كانت تتبع فقه الأحناف وقراءة حفص، إلا أننا أشرنا إلى أن التبعية كانت إدارية فقط، إضافة إلى التعلق الكبير لهذه البلدان بفقه وقراءة أهل المدينة.

2- النقطة الثانية: والتي من الجدير ذكرها والتنبيه عليها، ألا وهو عدم وصول مدونة إلينا في التفسير، تبرز لنا قراءة ابن عامر أو حمزة، على غرار ما عليه الأمر في قراءة نافع المتأخرة؛ وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى قلة التأليف في تلك المرحلة، وكذا نقول في أنّ أغلب الكتب والرسائل المؤلفة أكثرها مفقود، فهذا تفسير ابن سلام يعد أول تفسير في بلاد المغرب، إلا أنه لم يذكر فيه قراءته التي اعتمد عليها، حتى نثبت ما ذهبنا إليه!، حيث كان يذكر القراءات شاذها ومتواترها، ثم يرجح القراءة التي يؤيدها دليل من القرآن أو الآثار.

ومن التوصيات التي نوصي بها: حث طلبة العلم القيام بدراسات تتناول كل واحدة منها، التأريخ لفن من الفنون الإسلامية، كالتفسير أو الفقه أو الحديث أو غيرها، وهذا لأنّ الدراسات من هذا النوع تكاد تكون منعدمة، هذا والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

4. قائمة المراجع:

- أبو بكر بن العربي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة.
- أبو بكر بن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، 1400هـ.
- أبو بكر المالكي، رياض النفوس، تحقيق: محمد العروس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- أبو عبد الله العبدري المالكي، رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الثانية.
- أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب، بيروت.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن الجزري، غاية النهاية، تحقيق: برجستراسر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1351هـ.
- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمود الضباع، الطبعة التجارية الكبرى، القاهرة.
- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى.
- ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، لبنان، الطبعة الأولى.
- أحمد بن أبي عمر الأندراي، قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين، تحقيق: أحمد نصيف الجنابي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية.
- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة.
- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد الفضل أبو إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1376هـ/1957م.
- تاريخ دخول القرآن إلى المغرب، مقال على الشبكة العنكبوتية.
- جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة.
- سعد بن عبد الله الحميد، لماذا اختار المغاربة رواية ورش، مقال على الشبكة العنكبوتية، المجلس العلمي، الألوكة.
- السعيد أعراب، القراء والقراءات بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م.
- شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت.
- شمس الدين الذهبي، معرفة القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ.
- عباس الجراري، أسباب انتشار المذهب المالكي، ندوة القاضي عياض.

- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: محمد عبد الله الدرويش، مكتبة الهداية، دمشق، الطبعة الأولى، 2004م.
- عبد العزيز الأهواني، كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة معهد المخطوطات، المجلد 1.
- عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
- غدير الشريف، مدرسة القراءات في الأندلس، التعريف والنشأة والخصائص، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد الرابع، العدد الثالث والثلاثين.
- على الضباع، الإضاءة في بيان أصول القراءة، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة .
- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: ابن تاويع الطنجي، مطبعة فضالة، المغرب، الطبعة الأولى.
- محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- محمد بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1966م.
- محمد الزعبي، مقدمة دراسة محمد تميم الزعبي للمقدمة الجزرية.
- المقرئ التلمساني، أزهار الرياض، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة.
- المقرئ التلمساني، نفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- هند شلي، القراءات بإفريقية من الفتح إلى القرن الخامس هجري، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1983م.